وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ فى الآية الترتيب الطبيعى لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغنى اللئيم ، فأوَّل ما يطالع السائل يتغيَّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرضاً عنه ، وبنفس هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكيُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذى ظَنّ العزة فيه إلى نكَالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) ﴾ [الأحقاف]

حتى الجوارح التى تمتعتْ بمعصيتك فى الدنيا ستشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذى غفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذى اتخذته يتخلى عنك ويُسلمك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) ﴾

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أى : تُزعجهم وتُهيجهم ، ومثْله النزغ فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

والأزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتى هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما فى قوله

تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف]

وهذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣) ﴾ [مريم] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه ؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هى الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التى خُلقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أبَى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا فى حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١/ ٤١٠] .

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتي منها الشيطان إلا فوق وتحت ؛ لأنهما مرتبطتان بعزِّ الألوهية من أعلى ، وذُلّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخرُّ لله ساجداً ؛ لذلك أُغلقَتْ دونه هاتان الجهتان ؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا في الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل في مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان ؛ لأنه حين قال لربه تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة مني ، ولكن أغويهم بعزتك عن خَلْقك ، وترْكِكَ لهم الخيار ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هي النافذة التي أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لي على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم ليُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر ؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل في كَوْن الله إلى الإيمان بالله ؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسْلك مسْلك الفكر والتأمل ليحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو ليُنسيك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ .. (٦٣) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا فى الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا ؟

نقول : هذه ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قَوْل ربنا تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت]

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطِّ العبادة والإقامة بين يدى الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك وييأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص ؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبَّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص فى نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك فى باب ، أتاك من باب آخر ؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ

لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُميِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان ؛ لأنه يحارب في الإنسان فطرته الإيمانية التي تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهي دليل فطري لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربي قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .. سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعي الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣) ﴾ [مريم] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المتناصرون . [القاموس القويم٢/٩٨].

فكيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ فى هذه المسألة بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم] وهى مسألة لا يراها الإنسان ؟

نقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم] بمعنى ألم تعلم ؟ فعدَل عن العلم إلى الرؤيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] ؟

ذلك ، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحُّ من إخبار عينك لك ؛ لأن رؤية العين ربما تخدعك ، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً . فعلمك من إخبار الله لك أَوْلَى وأوثق من علمك بحواسك .

والشياطين : جمع شيطان ، وهو العاصى من الجنّ ، والجن خَلْق مقابل للإنسان قال الله عنهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ[1] قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن] فَمنْ هم دون الصالحين ، هم الشياطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

تمنّى النبى ﷺ لو أن الله أراحه من رؤوس الكفر وأعداء الدعوة ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم] فالله يريد أنْ تطول أعمارهم ، وتسوء فعالهم ، وتكثر ذنوبهم ، فالكتبة يعدُّون عليهم ويُحْصُون ذنوبهم .

ومعنى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم] أنها مسألة ستنتهى ؛

---

(١) طرائق قدداً : أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد . أى : منا المؤمن ومنا الكافر . (تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٠) .

لأن كل مـا يُعَدّ ينتـهى ، إنمـا الشىء الذى لا يُحـصَى ولا يُعَدُّ فـلا ينتهى ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

لأن نعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ولا تنتهى ؛ لذلك سُبِقَتْ بإن التى تفيد الشكَّ ، فهى مســألة لا يجرؤ أحد عليها ؛ لأن : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

وها نحن نرى علم الإحصاء وما وصل إليه من تقدّم حتى أصبح له جامعـات وعلماء متخصصـون أدخلوا الإحصاء فى كل شىء ، لكن لم يفكر أحد منهم أنْ يُحصِى نِعَم الله فى كَـوْنه ، لماذا ؟ لأن الإقبال على العَدّ مـعناه ظن أنك تستطيع أنْ تنتهى ، وهم يعلمون تـماماً أنهم مهما عَدُّوا ومهما أَحْصَوا فلن يصلُوا إلى نهاية .

إذن : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾ [مريم] نُحصِى سيـئاتهم ونَعدُّ ذنوبهم قبل أن تنـتهى أعمـارهم ، وكلما طالت الأعـمار كثـرتْ الذنوب ، وكل ما ينتهى بالعدد ينتهى بالمُدد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا صوراً متعددة ومشاهد مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعـبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمن تعاونوا على الشر ، ولمَنْ تعـاونوا على الخـير . وهذه صـورة أخرى تعـرض للمـتقـين فى ناحية ، والمجرمين فى ناحية ، فما هى صورة المتقين ؟

نحشر : أى : نجمع ، والوفد هم الجماعة تردُ على الملك لأخْذ عطاياه ، جمعها وفود ، والواحد وافد . وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله يوم القيامة وَفْداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى . ولا تظن أنهم يُحشَرون ماشين مثلاً ، لا ، بل كل مؤمن تقى يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد(1) .

وفى المقابل يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾

نسوق : والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ(2) إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور] ولم يقل مثلاً : نقودهم ؛ لأن القائد يكون من الأمام ، وربما غافله أحدهم وشرد منه .

وقوله تعالى : ﴿ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] الوِرْد : هو الذَّهاب للماء لطلب الريّ ، أما النار فمحلُّ اللظى والشُّواظ واللهب والحميم . فلماذا سُمِّى إتيان النار بحرِّها وِرْداً ؟

هذا تهكُّم بهم ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

وأنت ساعة تسمع (يغاثوا) تنتظر الخير وتأمل الرحمة ، لكن هؤلاء يُغاثون بماء كالمهل يشوى الوجوه .

---

(1) قال ابن عباس : ركباناً يؤتون بنوق من الجنة ، عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها ، وقال علي : ما يُحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها من ذهب ، ونجب سروجها يواقيت ، إن هموا بها سارت ، وإن حركوها طارت . أورد القرطبى هذه الآثار فى تفسيره (٦/٤٣٢٤) .

(2) يدعون ، أى : يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون] أى : يدفعه ويقهره وينهره . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] في توبيخ عُتَاة الكفر والإجرام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان] والبشرى لا تكون إلا بشيء سَار .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾ [مريم] تهكُّم ، كما تقول للولد المهمل الذي أخفق في الامتحان : مبروك عليك السقوط .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾

الكافر حين يباشر العذاب يطمع أول ما يطمع في أن يشفعَ له معبوده ، ويُخرجه ممَّا هو فيه لكنْ هيهات ، ألم تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) ﴾ [الأحقاف]

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء يوم القيامة : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ .. (٨٧) ﴾ [مريم] لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أخذ الإذن بها ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾ [مريم]

والعهد الذي تأخذه على الله بالشفاعة أنْ تُقدِّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت ، ثم تزيد عليها ما يؤهلك لأنْ تشفع للآخرين ، والخير لا يضيع عند الله ، فما زاد عن التكليف فهو في رصيدك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا يهمل مثقال ذرة .

وعلى المؤمن ـ مهما كان مُسْرفاً على نفسه ـ ساعةَ يرى إنساناً مُقبِلاً على الله مُستزيداً من الطاعات أنْ يدعوَ له بالمزيد ، وأن يفرح به ؛ لأن فائض طاعاته لعله يعود عليك ، ولعلك تحتاج شفاعته فى يوم من الأيام . أما مَنْ يحلو لهم الاستهزاء والسخرية من أهل الطاعات ، كما أخبر الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾ [المطففين]

فكيف ستقابل أهل الطاعات ، وتطمع فى شفاعتهم بعدما كان منك ؟ فإنْ لم تكُنْ طائعاً فلا أقلَّ من أنْ تحب الطائعين وتتمسح بهم ، فهذه فى حَدِّ ذاتها حسنةٌ لك ترجو نفعها يوم القيامة .

وما أشبه الشفاعة فى الآخرة بما حدث بيننا من شفاعة فى الدنيا ، فحين يستعصى عليك قضاءُ مصلحة يقولون لك : اذهب إلى فلان وسوف يقضيها لك . وفعلاً يذهب معك فلان هذا ، ويقضى لك حاجتك ، فلماذا قُضِيتْ على يديه هو ؟ لا بُد أن له عند صاحب الحاجة هذه أيادىَ لا يستطيع معها أنْ يرد له طلباً .

إذن : لابُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة ، وإذا تأملت لوجدت رسول الله ﷺ أول مَنْ قدّم رصيداً إيمانياً وسع تكليفه وتكليف أمته ، ألم يخبر عنه ربه بقوله : ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ**[1] **لِلْمُؤْمِنِينَ** .. (٦١) ﴾ [التوبة] لذلك وجبت له الشفاعة ، وأُذن له فيها .

---

(١) قال ابن عباس : يعنى يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وقال الضحاك : يصدق الله بما أنزل إليه ، ويصدق المؤمنين فيما بينهم فى شهاداتهم وأيمانهم على حقوقهم وفروجهم وأموالهم . أورد هذه الآثار السيوطى فى تفسير « الدر المنثور » (٢٢٧/٤) .

والحق - تبارك وتعالى - لا يغفل الرصيد فى خلقه أبداً ، فكل ما قدمت من طاعات فوق ما كلفك الله به مُدَّخَر لك ، حتى إن الإنسان إذا اتُّهم ظلماً ، وعُوقب على عمل لم يرتكبه فإن الله يدَّخرها له ويستر عليه ما ارتكبه فعلاً فلا يُعاقب عليه .

فالعهد - إذن - فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾ [مريم] أن تدخل مع ربك فى مقام الإحسان ، ولا يدخل هذا المقام إلا مَنْ أدَّى ما عليه من تكليف ، وإلا فكيف تكون مُحسناً وأنت مُقصِّر فى مقام الإيمان ؟

واقرأ إنْ شئت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦) ﴾ [الذاريات] ما العلة ؟ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١) (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالمحسن مَنْ يُؤدِّى من الطاعات فوق ما فرض الله عليه ، ومن جنس ما فرض ، فالله تعالى لم يُكلِّفنا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار ، ولم يفرض علينا صدقة للسائل والمحروم ، ولا بُدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين (حق) و (حق معلوم) هنا قال (حق) فقط ؛ لأن الكلام عن الصدقة أما الحق المعلوم ففى الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾

هذا الكلام منهم عبث وافتراء ؛ لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد ؟

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . [لسان العرب - مادة : هجع] .

فى أىّ قَرْن من القرون من ميلاد المسيح عليه السلام ؟ إن هذه المقولة لم تَأْت إلا بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح ، فما الموقف قبلها ؟ وما الذى زاد فى مُلْك الله بعد أنْ جاء هذا الولد ؟

الشمس هى الشمس ، والنجوم هى النجوم ، والهواء هو الهواء ، إذن : موضوعية اتخاذ الولد هذه عبث ؛ لأنه لم يَزِدْ شىء فى الملْك على يد هذا الولد ، ولم تكن عند الله تعالى صفة مُعطلة اكتملتْ بمجىء الولد ؛ لأن الصفات الكمالية لله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق أىّ شىء .

فهو سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخْلق ، ورازق قبل أنْ يَرزُق ، ومُحْيٍ قبل أنْ يحيى ، ومميت قبل أن يميت . فبالصفات أوجد هذه الأشياء ، فصفات الكمال فيه سبحانه موجودة قبل متعلقاتها .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالشاعر الذى قال قصيدة . وقلنا : إنه قال القصيدة لأنه شاعر بدايةً ، ولولا أنه شاعر ما قالها .

لذلك يرد الحق سبحانه على هذا الافتراء بقوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف]

وهنا يرد عليهم بقوله :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾

والإدّ : المتناهى فى النكْر والفظاعة ، وهو الأمر المستبشع ، من : آده الأمر . أى : أثقله ولم يَقْو عليه ، ومنه قوله تعالى فى آية الكرسى : ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] أى : لا يثقل عليه .

لكن ، لماذا جعل هذا الأمر إدّاً ومنكراً فظيعاً ؟

قالوا : لأن اتخاذ الولد له مقاصد ، فالولد يُتخذ ليكون لك عزْوة وقوة ؛ أو ليكون امتداداً لك بعد موتك ، والحق سبحانه وتعالى هو العزيز ، الذى لا يحتاج إلى أحد ، وهو الباقى الدائم الذى لا يحتاج إلى امتداد .

إذن : فاتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا علةَ له ، كما أن اتخاذ الولد لله تعالى ينفى سواسية العبودية له سبحانه .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ[1] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾

أى : فلسنا نحن فحسْب الذين ننكر هذا الأمر ، بل الجماد غير المكلف أيضاً ينكره ، فالسموات بقوتها وعظمها تتفطر أى : تتشقق ، وتكاد تكون مِزَعاً لهوْل ما قيل ، تقرب أن تنفطر لكن لماذا لم تنفطر بالفعل ؟ لم تنفطر ؛ لأن الله يمسكها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

وفى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يارب ائذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يارب ائذن لى أن أخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِّ ائذن لى أن أُغرق ابن

(١) يتفطر : يتشقق . أى أن السماوات تكاد أن يتشققن من هول قولهم إن لله ولداً . [القاموس القويم ٢/٨٥] .

آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

فما العلَّة فى أن السماء تقرب أن تنفطر ، والأرض تقرب أن تنشق ، والجِبال تقرب أن تخرَّ ؟

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾

هذه هى العلة والحيثية التى من أجلها يكاد الكونُ كلُّه أن يتزلزل ، ويثور غاضباً لهذه المقولة الشنيعة .

ثم يعقب الحق سبحانه فيقول :

﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

وعلينا هنا أنْ نُفرق بين نَفْى الحدث ونفى انبغاء الحدث ، فمثلاً فى قول الحق - تبارك وتعالى - فى شأن نبيه ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] فنفى عنه قَوْل الشعر ، ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانٌّ أن النبى لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقَّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ ، لكن رسول الله قادر على قَوْل الشعر إنْ أراد ، فهو قادر على الحدث ، إلا أنه لا ينبغى له .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] فإنْ أراد سبحانه وتعالى أن يكون له ولد لكانَ ذلك ، كما جاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : إن كان له سبحانه ولد فعلى العَيْن والرأس ، إنما هذه مسألة ما أرادها الحق سبحانه ، وما تنبغى له ، فكيف أدَّعى أنا أن لله ولداً هكذا من عندى ؟

وما حاجته تعالى للولد ، وقد قال فى الآية بعدها :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾

ذلك لأن الخالق - تبارك وتعالى - خلق الإنسان ، وجعل له منطقة اختيار يفعل أو لا يفعل ، يؤمن أو لا يؤمن ، وكذلك جعل فيه منطقة قَهْر ، فالكافر الذى ألف الكفر ، وتعوَّد عليه ، وتمرد على الطاعة والإيمان ، هل يستطيع أنْ يتمرَّد مثلاً على المرض أو يتمرَّد على الموت ، أو على الفقر ؟

إذن : فأنت مُختار فى شىء وعَبْد فى أشياء ، كما أن منطقة الاختيار هذه لك فى الدنيا ، وليست لك فى الآخرة . وسبق أنْ فرَّقنا بين العباد والعبيد ، فالجميع : المؤمن والكافر عبيد لله تعالى ، أما العباد فهم الذين تنازلوا عن اختيارهم ومرادهم لمراد ربهم ، فجاءت كُلُّ تصرفاتهم وفقاً لما يريده الله .

وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

ومعنى : ﴿ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] أى : فى الآخرة ، حيث تُلْغَى منطقة الاختيار ، ولا يستطيع أحد الخروج عن مراد الله تعالى ، ويسلب الملك من الجميع ، فيقول تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وهو سبحانه القادر على العطاء ، القادر على السلب : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾

الإحصاء : هو العدّ ، وكانوا قديماً يستخدمون الحصَى أو النوى فى العدّ ، لكن النوى فرع ملكية النخل ، فقد لا يتوفر للجميع ؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصَى ، ومنه كلمة الإحصاء .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾

أى . وحده ، ليس معه أهل أو أولاد أو عزْوة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

فكل مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج]

وتأمَّل قوله : ﴿ آتِيهِ .. (٩٥) ﴾ [مريم] فالعبد هو الذى يأتى بنفسه مُخْتاراً لا يُؤْتَى به ، فكأن الجميع منضبط على وقت معلوم ، إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عز وجل .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾

وُدّاً : مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلّق ، وقد جعل الحق - تبارك وتعالى - في كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقبلاً عليك تقوم له وتبشُّ في وجهه ، وتُفسح له في المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعوده إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح وتواسيه في الأحزان وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة .

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة في الدنيا بين الخَلْق جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، أمّا هنا : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم]

أي : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأنْ ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له : إني أحبك لله .

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فضلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة .

لذلك قال هرم بن حيَّان[1] - رحمه الله - : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه إلا فتح له قلوب المؤمنين جميعاً[2] .

---

(١) هو : هرم بن حيان العبدي ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات في يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٣٣٣) : « كان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم » .

كما جاء فى الحديث القدسى :

« ما أقبل علىَّ عبْد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً »[1] أى : بالمودة والرحمة دون أسباب .

وفى الحديث القدسى : « إن الله إذا أحب عبداً نادى فى السماء : إننى أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادى جبريل فى الأرض : إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه . ويوضَع له القبول فى الأرض »[2] .

فيحبه كل مَنْ رآه عطية من الله وفضلاً ، دون سبب من أسباب المودة ، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهب لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهى فى يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء .

وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء] أن نرد الجميل بأحسن منه ، فإنْ لم نقدر على الأحسن فلا أقلَّ من الرد بالمثل ، فإنْ كان هذا عطاء العبد ، فما بالك بعطاء الرب ؟

ومن ذلك ما جاء فى الحديث الشريف « من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »[3] .

---

(١) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٤٧) عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه .. وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٧) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤١٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥٢ ، ٢٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والعَوْن يقتضي مُعيناً ومُعَاناً ، ولا بُدّ أن يكون المعين أقوى من المعان ، فيفيض عليه منَ فضل ما عنده : صحة ، أو قدرة ، أو غنىً ، أو علماً . وإعانةُ العبد لأخيه محدودة بقدراته وإمكاناته ، أمَّا معونة الله لعبده فغير محدودة ؛ لأنها تناسب قدرة وإمكانات الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عوَّدنا ربنا - تبارك وتعالى - حين نُضحِّي بالقليل أنْ يعطينا الكثير وبلا حدود ، فضلاً من الله وكرماً . ألم ترَ أن الحسنة عنده تعالى بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعف ؟ أليست هذه تجارة مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ ﴾ [الصف]

وقال عنها : ﴿ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ㉙ ﴾ [فاطر]

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد منا المحبة المتبادلة التي تربط بين قلوبنا وتُؤلِّف بيننا ، ثم يمنحنا سبحانه الثمن .

إذن : العملية الإيمانية لا تظن أنها إيثار ، بل الإيمان أثرة ، وأنت حين تتصدق بكذا إنما تأمل ما عند الله من مضاعفة الأجر ، فالإيمان - إذن - أنانية عالية .

والحق - سبحانه وتعالى - يريد منا أنْ نعودَ على غيرنا بفضل ما نملك ، كما جاء في الحديث : « مَنْ كان عنده فضل مال فليعُدْ به على مَنْ لا مالَ له ... »(1) .

واعلم أن الله سيُعوِّضك خيراً مما أعطيْتَ . ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك ولدين ، أعطيتَ لكل منهما مصروفه ،

---

(1) عن أبي سعيد الخدري قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ جاء رجل على ناقة له ، فجعل يصرفها يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في الفضل . أخرجه أبو داود في سننه (١٦٦٣) وأحمد في مسنده (٣٤/٣) .

فالأول اشترى به حلوى أكل منها ، وأعطى رفاقه ، والآخر بدّد مصروفه فيما لا يُجدى من ألعاب أو خلافه ، فأيهما تعطى بعد ذلك ؟ كذلك الحق سبحانه يعاملنا هذه المعاملة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

الفاء هنا تفيد : ترتيب شيء على شيء فابحث فى الجملة بعدها عن هذا الترتيب ، فالمعنى : بشّر المتقين ، وأنذر القوم اللُّد[1] لأننا يسرنا لك القرآن .

ويسّرنا القرآن : أى : طوعناه لك حفْظاً وأداءً وإلقاء معانٍ ، فأنت تُوظِّفه فى المهمة التى نزل من أجلها .

وتيسير القرآن ورد فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]

والمتأمل فى تيسير القرآن يجد العجائب فى أسلوبه ، فترى الآية تأتى فى سورة بنص ، وتأتى فى نفس السياق فى سورة أخرى بنص آخر ، فالمسألة - إذن - ليست (أكلاشيه) ثابت ، وليست عملية ميكانيكية صماء ، إنه كلام رب .

خُذْ مثلاً قوله تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المدثر]

(١) لدَّ يَلَدُّ : اشتد فى الجدل والخصومة فهو لدٌّ . واللُّدُّ : أشداء الخصومة . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

وفى آية أخرى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان]

مرة يقول : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ .. (٢٩)﴾ [الإنسان] ومرة يقول : ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ [عبس]

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق فى سورة (الرحمن) حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن] ثم يأتى الحديث عنهما : فيهما كذا ، فيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى قاصرات الطرف فيقول : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. (٥٦)﴾ [الرحمن]

وكذلك فى : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾ [الرحمن] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى الحور العين فيقول : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تتساءل : الحديث هنا عن الجنتين ، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن) فى هذه النعمة بالذات ؟

قالوا : لأن نعيم الجنة مشترك ، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا فى نعمة الحور العين ، فلها خصوصيتها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجل ، ففى هذه المسألة يكون لكل منا جنته الخاصة التى لا يشاركه فيها أحد .

لذلك لما رأى رسول الله ﷺ الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه ، فلما سُئل عن ذلك ﷺ قال : « إنه لعمر ، وأنا أعرف غَيْرة عمر »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٤٢) من حديث أبى هريرة قال : « بينما نحن عند النبى ﷺ إذ قال : بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » . وكذا أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٠٧) .

فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن ، وإلى هذه الدرجة تكون دِقَّة التعبير فى القرآن الكريم .

ولولا أن الله تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد ، فالنبى ﷺ كان ينزل عليه الآيات ، وحين يسرى[1] عنه يمليها على الصحابة ، ويظل يقرؤها كما هى ، ولوَلا أن الله قال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الاعلى] ما تيسَّر له ذلك .

ونحن فى حفْظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً ، فالصبى فى سنِّ السابعة يستطيع حفْظ القرآن وتجويده ، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفلَّتَ منه ، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص فى هذه السن يظل عالقاً بذهنه .

إذن : مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة ، بل معونة حافظ ، فإن كنت على وُدٍّ وأُلْفة بكتاب الله ظلَّ معك ، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« تعاهدوا القرآن ، فو الذى نفسى بيده لَهُو أشدُّ تفصِّياً[2] من الإبل فى عُقُلها »[3] .

ذلك ؛ لأن حروف القرآن ليست مجرد حرف له رسم ومنطوق ، إنما حروف القرآن ملائكة تُصفّ ، فتكون كلمة ، وتكون آية ، فإنْ وددتَ الحرف ، ووددتَ الكلمة والآية ، ودَّتْك الملائكة ، وتراصتْ عند قراءتك[4] .

---

(١) سُرِّى عنه : كُشف عنه . قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة سرا : « قد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحديث ، وخاصة فى ذكر نزول الوحى عليه . وكلها بمعنى الكشف والإزالة» .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٨١/٩) : « تفصياً . أى : تفلتاً وتخلصاً . ووقع فى حديث عقبة بن عامر بلفظ « تفلتاً » فمن شأن الإبل أنها تطلب التفلت ما أمكنها ، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت ، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت بل هو أشد فى ذلك » .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب « صلاة المسافرين » من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٤) عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكت الفرس .. فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها ، قال ﷺ : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » .

ومن العجائب في تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعملتَ عقلك في القراءة تتخبّط فيها وتخطىء ، فإنْ أعدتَ القراءة هكذا على السليقة كما حفظت تتابعت معك الآيات وطاوعتك .

وتلحظ هنا أن القرآن لم يأتِ باللفظ الصريح ، إنما جاء بضمير الغيبة في ﴿ يَسَّرْنَاهُ .. (٩٧) ﴾ [مريم] لأن الهاء هنا لا يمكن أن تعود إلا على القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فضمير الغيبة هنا لا يعود إلا على الله تعالى .

وقوله : ﴿ بِلِسَانِكَ (٩٧) ﴾ [مريم] أي : بلغتك ، فجعلناه قرآناً عربياً في أمة عربية ؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله في البشارة والنذارة ، ولو جاءهم بلغة أخرى لقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) ﴾ [مريم]

والإنذار : التحذير من شَرٍّ سيقع في المستقبل ، واللَّدَد : عُنْف الخصومة ، وشراسة العداوة ، نقول : فلان عنده لَدَد أي : يبالغ في الخصومة ، ولا يخضع للحجة والإقناع ، ومهما حاولتَ معه يُصِرُّ على خصومته .

ويُنهي الحق سبحانه سورة مريم بقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُسرِّى عن نبيه ﷺ ما يلاقى من عنت فى سبيل دعوته ، كأنه يقول له : إياك أنْ ينالَ منك بُغْض القوم لك وكُرههم لمنهج الله ، إياك أنْ تتضاءلَ أمام جبروتهم فى عنادك ، فهؤلاء ليسوا أعزَّ من سابقيهم من المكذبين ، الذين أهلكهم الله ، إنما أستبقى هؤلاء لأن لهم مهمة معك .

وسبق أن أوضحنا أن الذين نجوْا من القتل من الكفار فى بعض الغزوات ، وحزن المسلمون لنجاتهم ، كان منهم فيما بَعْد سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ .. (٩٨) ﴾ [مريم]

كم : خبرية تفيد الكثرة ، من قرن : من أمة ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ .. (٩٨) ﴾ [مريم] لأننا أخذناهم فلم نُبق منهم أثراً يحس .

ووسائل الحسِّ أو الإدراك كما هو معروف : العين للرؤية ، والأذن للسمع ، والأنف للشمِّ ، واللسان للتذوق ، واليد للمس ، فبأىِّ أداة من أدوات الحسِّ لا تجد لهم أثراً .

وقوله : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم] الركْز : الصوت الخفىّ ، الذى لا تكاد تسمعه . وهذه سُنَّة الله فى المكذبين من الأمم السابقة كما قال سبحانه : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[1] وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾ [الدخان]

أين عاد وثمود وإرم ذات العماد التى لم يُخلَق مثلها فى البلاد ؟

---

(١) تُبَّع : لقب ملوك اليمن العظام ، وهم أهل سبأ ، كانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً كما يقال كسرى لمن ملك الفرس . وقيصر لمن ملك الروم . وفرعون لمن ملك مصر . والنجاشى لمن ملك الحبشة . [تفسير ابن كثير ١٤٣/٤] .

وأين فرعون ذو الأوتاد ؟ فكل جبار مهما علَتْ حضارته ما استطاع أنْ يُبقى هذه الحضارة ؛ لأن الله تعالى أراد لها أنْ تزول ، وهل كفار مكة أشدّ من كل هؤلاء ؟

لذلك حين تسمع هذا السؤال : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم] لا يسَعْك إلاَّ أنْ تُجيب : لا أحسُّ منهم من أحد ، ولا أسمع لهم ركزاً .


سُورَةُ طه